

ثروة تحت الأرض



رسوم

عادل البطراوي



دار المعارف

تأليف

يعقوب الشاروني

المكتبة الخضراء للأطفال

٥٩

لَرَوَه حَتَّ الْأَرْضِ



رسوم
عادل البطراوي

تأليف
يعقوب الشاروني


دارالمعارف

١ هَرُوبٌ مِنْ رِجَالِ السُّلْطَانِ

إنهم يطاردونني.. تركت بغداد هاربًا من السلطان ومن عيون
المنتفعين بوجودهم حول السلطان!..
تهامس المنتفعون: «بيت المال خاو والتجار يخسرون!»..
أمر السلطان: «خذوا دينارًا ضريبةً من كلِّ رجلٍ ونصف دينارٍ عن
كلِّ امرأةٍ..».

ولما كنتُ أعملُ أمينًا لديوان بيت المال وأصبحتُ أكثرَ من غيري
معرفةً بأحوال الناس، فقد عبّرتُ عن رأيي.. قلتُ: «الشعبُ
فقيرٌ والتجارُ يخفون ثرواتهم!».



وَمِنذُ أَعْلَنْتُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ وَهُمْ يَطَارِدُونَنِي ..
تَصَوَّرُوا أَنَّنِي أَثِيرُ السُّلْطَانَ ضِدَّ التُّجَّارِ ، وَأَنَّ مَا قَلْتُهُ إِعْلَانٌ لِلْحَرْبِ عَلَى
التُّجَّارِ ، وَهُمْ أَقْرَبُ الْأَصْدِقَاءِ لِرِجَالِ السُّلْطَانِ .. بَلْ ظَنُّوا عِبَارَتِي إِشَارَةً
إِلَى اسْتِفَادَةِ بَعْضِ رِجَالِ السُّلْطَانِ مِنْ ثَرَوَاتِ التُّجَّارِ !!
وَبَدَأَتِ الْحَرْبُ ضِدِّي !! .

قالوا : «إِنَّ «عَبْدَ الْمُنْصَفِ الْخَضْرَاوِي» بَدَّدَ أَمْوَالَ بَيْتِ الْمَالِ ، بِحِجَّةِ
التَّصَدِّقِ بِهَا عَلَى الْفُقَرَاءِ !» .

وَمَعَ أَنَّ السُّلْطَانَ كَانَ يُسَلِّمُ بِنَفْسِهِ إِلَى كُلِّ مُحْتَاجٍ مَا يُخَفِّفُ عَنْهُ
حَاجَتَهُ ، فَقَدْ طَالَبَتْنِي سُلْطَاتُ التَّحْقِيقِ وَالتَّفْتِيشِ بِمَا يُثَبِّتُ تَسْلِيمَ
تِلْكَ الْأَمْوَالِ إِلَيَّ مُسْتَحْقِقِيهَا ، وَإِلَّا فَأَكُونُ قَدْ اخْتَلَسْتُهَا وَأَخَذْتُهَا
لِنَفْسِي !! .

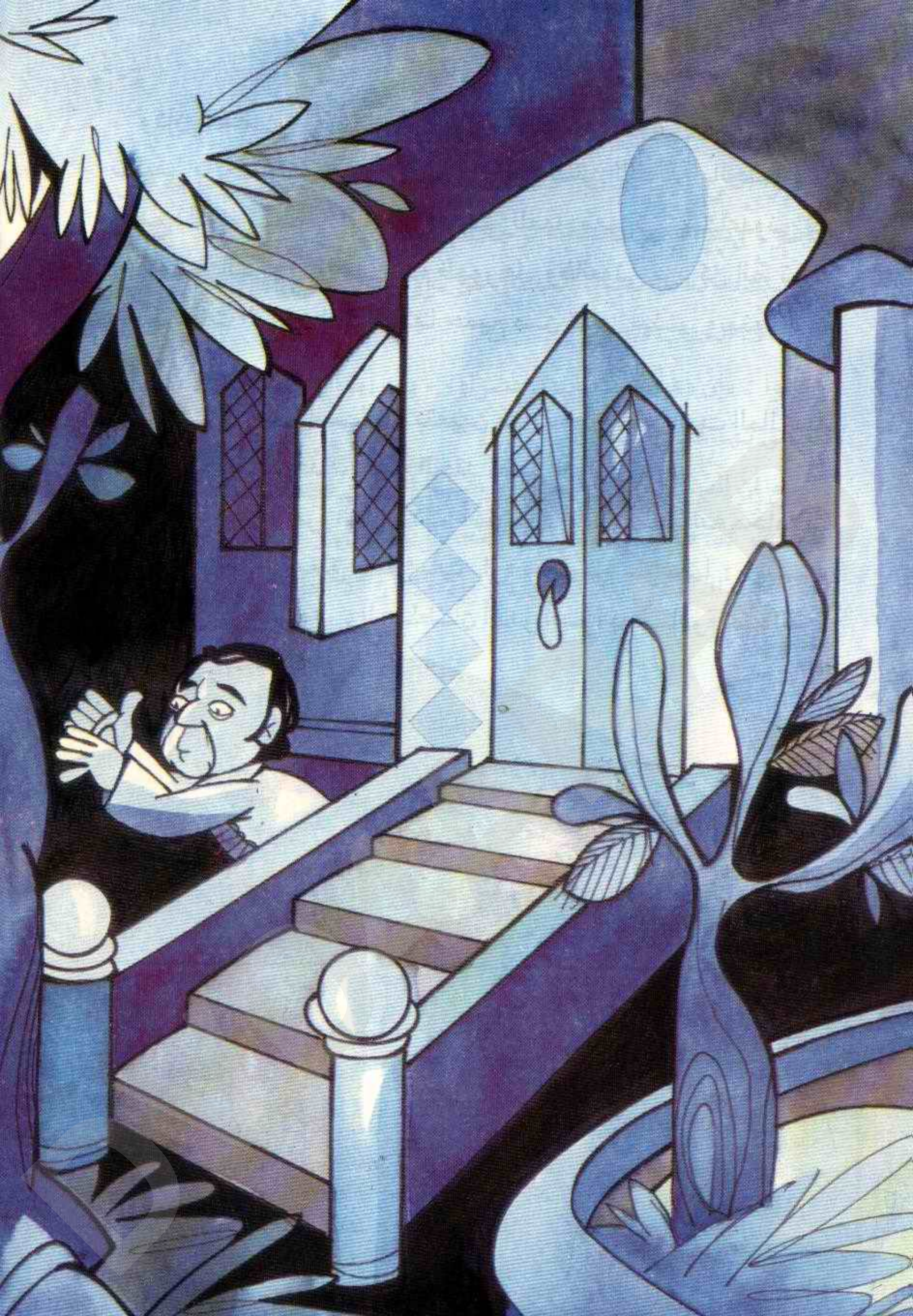


وكان بعض إخوتي وأولاد عمي يعملون في ديوان بيت المال قبل تكليفي بالإشراف عليه، لخبرة أفراد عائلتي الطويلة بالحسابات، ومع ذلك اتهموني بالحاق أقاربي للعمل معي كي يساعدوني في إخفاء سرقات أحرص على عدم ظهورها، وطالبوني برد كل المرتبات والمكافآت التي حصل عليها جميع من تكون بيني وبينهم صلة قرابة!.

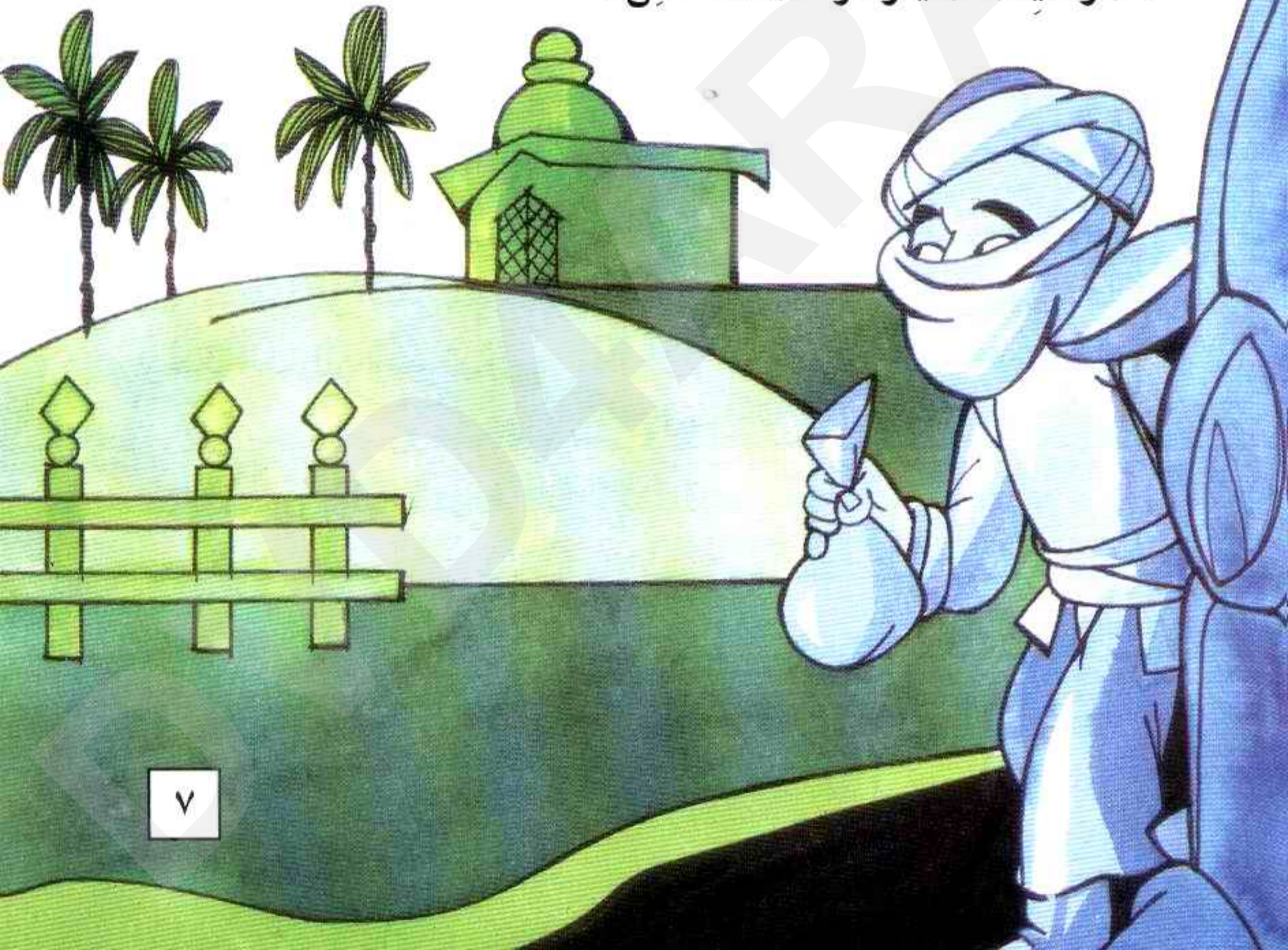
ثم أشاروا على السلطان بتعيين من يفحص شئون بيت المال منذ توليت أموره، فوجدت حلقة الحقد تضيق حولي.

وعندما ذهبت سرا أزور صديقا أستشيرهُ فيما وصلت إليه محاولات الكيد لي، أسرع يغلق خلفي باب داره ويُنذرنِي مُنزعجا: «أسرع بالفرار يا خضراوى.. السلطان أصدر أمرا بمصادرة أموالك..»





الجنودُ ينهبونَ الآنَ بيتَكَ لحسابِ بيتِ المالِ...»
هكذا أصدرُوا الحكمَ بإدانتي ونفذوا العقوبةَ بغيرِ مُحاسبةٍ ولا
مُحاكمةٍ، ولا إتاحةِ فرصةٍ للاستماعِ إلى دفاعي، أو انتظارِ نتائجِ الفحصِ
الذي يقومُ بهِ مَنْ اختارَهُ السلطانُ لمراجعةِ حساباتِ بيتِ المالِ!
أعطاني صديقي كيسًا بهِ دنائيرٍ تعينني على مواجهةِ المجهولِ،
وتسللتُ منَ البابِ الخلفيِّ لبيتهِ مُستترًا بظلامِ الليلِ، وقد ارتديتُ
ملابسَ الخدمِ وأخفيتُ وجهي بالقدرِ الذي لا يُثيرُ الريبةَ والشكَّ،
فالجواسيسُ لن يتوقفوا عن ملاحقتي..





وكان من المُستحيل التوصلُ إلى وسيلةٍ لوداع زوجتي العزيزة
«ياسمين» أو ابنتي الحبيبة «بسمة»، وإلا وقعتُ فوراً بين مخالِبِ
رجالِ السلطانِ وعيونهم..

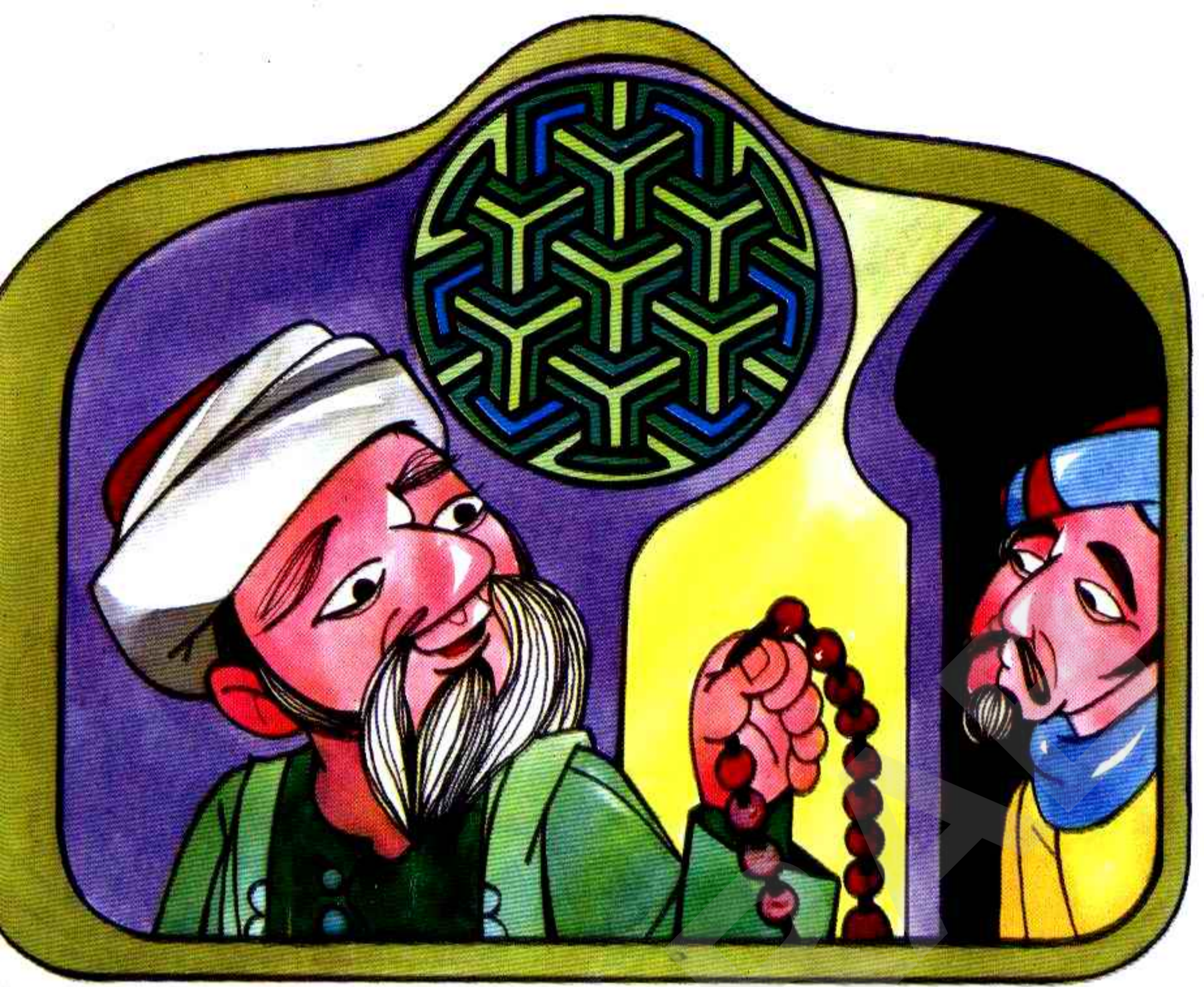
بل أين أجدُ زوجتي وابنتي وأنا أعرفُ من خبرتي في أحداثِ
مماثلةٍ، أن «الباحثين عن الثروات» قد طردوهُما بغيرِ شكٍ من بيتي،
بعد قيامهم بنهبِ كلِّ ما فيه والاستيلاءِ عليه؟!..

خرجتُ هائماً على وجهي، أتنقلُ مُتخفياً مطارداً من قريةٍ إلى
أخرى، حتى وصلتُ مُعدماً شريداً بعدَ شهورٍ طويلةٍ إلى دمشق.

٢ نصيحة الشيخ عبد المؤمن

كانت الدنانير القليلة التي معي قد نفذت، فلم أستطع شراء طعام ولا العثور على مكان آمن أبيت فيه.
قصدت أحد المساجد، واخترت بعد صلاة العشاء ركنًا بعيدًا لجُلوسِي وأنا أشعرُ بإرهاق شديد لا شك أنه ظهر واضحًا على وجهي، فاقترَب مني شيخٌ جليلٌ تبدو عليه الهيبةُ كان يتأهبُّ لمغادرة المسجد.





حَاوَلْتُ إِغْمَاضَ عَيْنِي وَالتَّظَاهِرَ بِالنَّوْمِ لِاتِّفَادِي أَسْئَلَةَ الْمُتَطَفِّلِينَ ، لَكِنِّي
 سَمِعْتُ الشَّيْخَ يَسْأَلُنِي فِي لَهْجَةٍ هَادِئَةٍ تُثِيرُ الاطمِئْنَانَ : «غَرِيبٌ؟» .
 اضْطَرَرْتُ إِلَى الإِجَابَةِ فِي صَوْتٍ مُتَنَاعِسٍ : «أَرْجُو أَنْ يَسْمَحُوا لِي
 بِقَضَاءِ اللَّيْلِ هُنَا» .

قَالَ بِنَفْسِ الْهَدُوءِ : «خَلْفَ هَذَا الْمَسْجِدِ قَصْرٌ عَظِيمٌ ، اذْهَبِ الْآنَ إِلَى
 هُنَاكَ ، وَقُلْ لِلْحَارِسِ : الشَّيْخُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ أُرْشِدُنِي لِلْمَجِيءِ» . وَلَمْ يَتْرَكْ
 وَقْتًا لِسُؤَالِ آخَرَ ، فَقَدْ وَاصَلَ سَيْرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ .

شعرت بالتردد وأنا أقول لنفسي: «وإذا سألني الواقف على باب القصر عن سبب ذهابي إليه، فبماذا أجيب؟! هل من المعقول التوجه إليه لأقول بغير مقدمات إنني جئت طلباً للطعام والمأوى؟! كيف ومتى أصبحت القصور بيوتاً للصدقة تُرحب بالهاربين مجهولي الشخصية مثلي؟! ومن أدراني، قد يكون صاحب القصر على صلة بأحد رجال السلطان الذين تنتشر عيونهم في أنحاء البلاد!». لكنني وجدت حارس المسجد يُطفئ القناديل بعد انصراف كل الناس ما عداي.

وقبل اقترابه ناحيتي ليسأل عن سبب بقائي وقد مضى الآخرون، تحاملت على نفسي وخرجت.



٣ دخلت من الباب الصغير

لَمْ يَكُنِ التَّعْرِفُ عَلَى الْقَصْرِ صَعْبًا، فَمِسَاحَتُهُ الْكَبِيرَةُ لَمْ تَتْرِكْ مَكَانًا لِبِنَاءٍ غَيْرِهِ خَلْفَ الْمَسْجِدِ، لَكِنِّي لَمْ أَجْرُؤْ عَلَى التَّقَدُّمِ نَحْوَ بَابِهِ.. كُنْتُ أَشْكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَوْفًا مِنْ انْكَشَافِ شَخْصِيَّتِي.

تَأَمَّلْتُ الْبِنَاءَ الشَّامِخَ تَزِينٌ مَدْخَلَهُ الْعَالِي نَقُوشٌ عَرَبِيَّةٌ دَقِيقَةٌ، تَدُلُّ عَلَى ذَوْقٍ رَفِيعٍ وَثَرَاءٍ عَظِيمٍ، وَالْبَابُ هَائِلُ الْحَجْمِ مَصْنُوعٌ مِنْ كَتَلِ خَشَبٍ ثَمِينٍ تَحْزَمُهَا مَعًا شَرَائِطُ عَرِيضَةٌ مِنْ نَحَاسٍ مَحْفُورٍ فِيهَا نَقُوشٌ لِمَخْلُوقَاتٍ خَيَالِيَّةٍ لَهَا رُؤُوسٌ بَشَرِيَّةٌ وَأَجْسَامٌ طَيُورِيَّةٌ.





وَفِي الْجَزءِ الْأَسْفَلِ مِنَ الْبَابِ فَتْحَةٌ لَهَا بَابٌ صَغِيرٌ لِدُخُولِ
الْقَادِمِينَ، بَيْنَمَا الْأَبْوَابُ الْكَبِيرَةُ لَا يَفْتَحُونَهَا إِلَّا لِاسْتِقْبَالِ زَائِرٍ
عَظِيمٍ يُفْسِحُونَ لَهُ الطَّرِيقَ إِلَى الْفِنَاءِ الَّذِي يَتَوَسَّطُ الْقَصْرَ لِكَيْ يَدْخُلَ
وَهُوَ رَاكِبٌ حِصَانَهُ أَوْ بَغْلَتَهُ.

وَقَفْتُ فِي الظَّلَامِ أَرَاقِبُ الْبَابَ، فَلَا حِظَّتُ رَجُلًا يَجْلِسُ بِجِوَارِهِ عَلَى
مَقْعَدٍ مُنْخَفِضٍ .

وَعِنْدَمَا عَبَرَ الطَّرِيقَ أَمَامِي رَجُلٌ بِصُحْبَتِهِ امْرَأَةٌ يَحْمِلَانِ مِشْعَلًا،
سَقَطَ الضَّوؤُ عَلَى وَجْهِهِ وَأَنَا أَقِفُ مُنْكَمِشًا حَوْلَ نَفْسِي، فَوَجَدْتُ
الْحَارِسَ يَقِفُ وَيَتَّجُهُ نَاحِيَّتِي.



صَوَّرْتُ لِي مَخَاوِفِي أَنَّ الشُّكَّ دَاخَلَ فِي أَمْرِي فَحَاوَلْتُ التَّرَاجُعَ
لأَبْتَعِدَ، لَكِنَّهُ نَادَانِي: «تَمَهَّلْ.. هَلْ تَنْتَظِرُ أَحَدًا؟».

وَبَغَيْرِ تَفْكِيرٍ كَثِيرٍ وَبِسَبَبِ إِرْهَاقِي الشَّدِيدِ نَسِيتُ تَرُدِّي وَقُلْتُ:
«أَرْسَلَنِي الشَّيْخُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ...».

فِي الْحَالِ تَغَيَّرَتْ مَلَامِحُ وَجْهِ الْحَارِسِ مُعْبِرَةً عَنِ التَّرْحِيبِ وَهَتَفَ
بِي: «وَلِمَاذَا تَقِفُ بَعِيدًا؟! تَفْضَلْ!».

هَكَذَا بَغَيْرِ سُؤَالٍ عَنِ اسْمِي أَوْ اسْتَفْسَارٍ عَمَّنْ أَكُونُ، دَعَانِي

لِلدَّخُولِ!.

وَفَتَحَ لِي الْبَابَ الصَّغِيرَ.



٤) بِكَ اكْتَمَلْنَا خَمْسَةً

وَجَدْتُ نَفْسِي فِي الْفِنَاءِ الْمُتَّسِعِ الَّذِي يَتَوَسَّطُ الْغُرْفَ وَالْقَاعَاتِ الَّتِي
ارْتَفَعَتْ طَابِقَيْنِ. وَأَشَارَ الْحَارِسُ إِلَى مَقْعَدٍ طَوِيلٍ مِنَ الْخَشَبِ فِي أَحَدِ
جَوَانِبِ الْفِنَاءِ الْمُظْلِمَةِ وَهُوَ يَقُولُ: «اسْتَرِحْ هُنَا».

فُوجِئْتُ عِنْدَمَا اقْتَرَبْتُ، بِوُجُودِ أَرْبَعَةِ رِجَالٍ آخَرِينَ سَبَقُونِي
وَجَلَسُوا عَلَى نَفْسِ الْمَقْعَدِ.

وَلَمَّا كُنْتُ قَدْ اعْتَدْتُ مِنْذُ هُرُوبِي أَلَّا أَبْدَأَ حَدِيثًا مَعَ أَحَدٍ وَلَا أَرْحَبَ
بِحَدِيثٍ مَعَ غُرَبَاءَ، فَقَدْ جَلَسْتُ صَامِتًا لَا أَنْطِقُ..

لَكِنِّي وَجَدْتُ أَقْرَبَ الْجَالِسِينَ إِلَى جِوَارِي يَمِيلُ نَاحِيَّتِي
وَيَقُولُ: «بِكَ اكْتَمَلْنَا خَمْسَةً...».

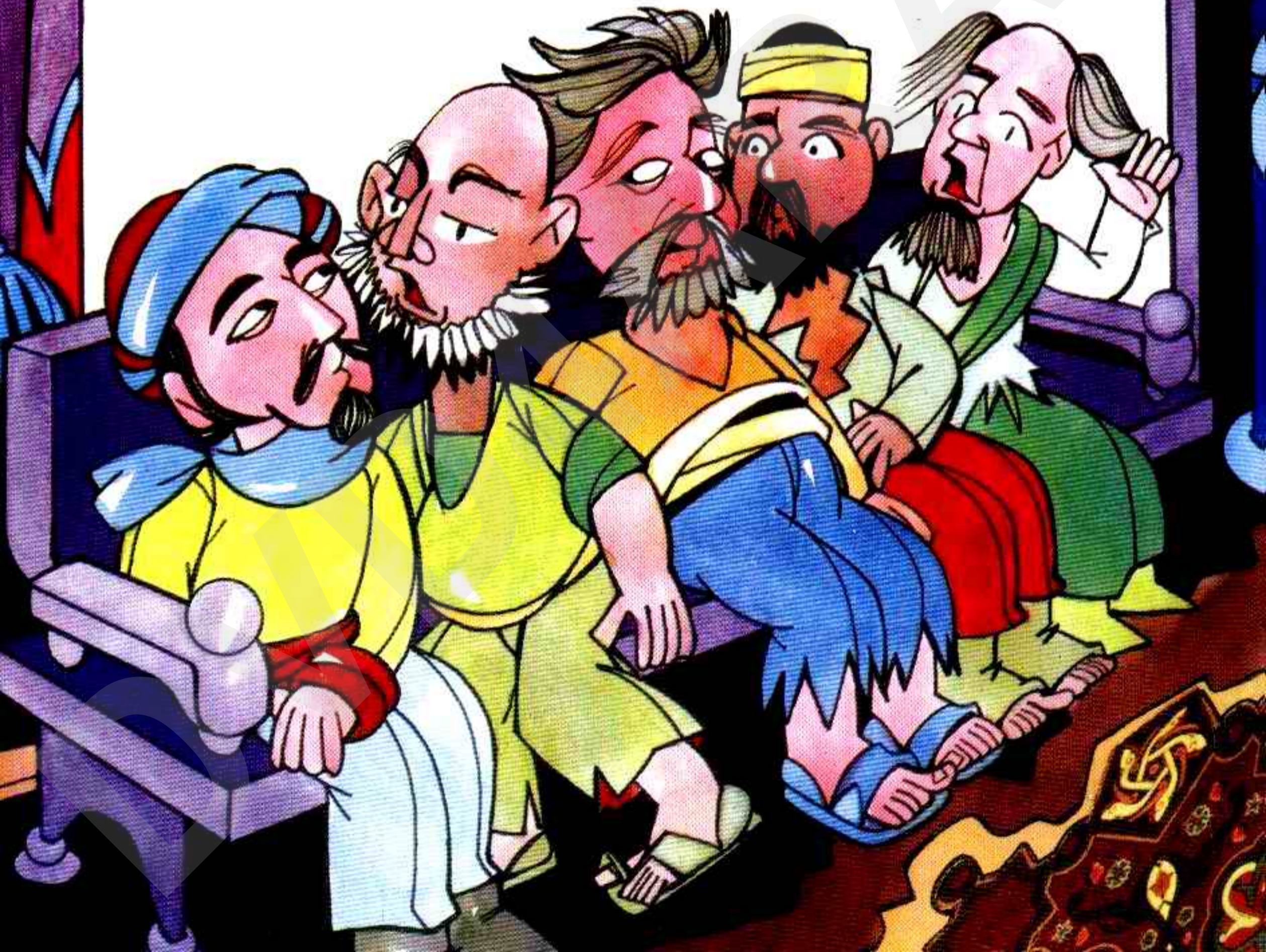
لَمْ أَفْهَمْ مَاذَا يَقْصِدُ لَكِنِّي لَمْ أَتَحَمَّسْ لِإِلْقَاءِ أَسْئَلَةٍ..

وَلَمْ يَمْنَعْنِي هَذَا مِنَ التَّسَاوُلِ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: «لِمَاذَا خَمْسَةٌ؟! وَمَا
سَبَبُ انْتِظَارِ هَؤُلَاءِ؟! هَلْ هُمْ ضَيْوْفٌ عَلَى صَاحِبِ الْقَصْرِ؟! وَإِذَا كَانُوا
ضَيْوْفًا فَلِمَاذَا لَمْ يُرْشِدْهُمْ الْحَارِسُ إِلَى قَاعَةِ الْأَسْتِقْبَالِ?!».

عَادَ الرَّجُلُ الْمُجَاوِرُ لِي يَقُولُ: «حَارِسُ الْبَابِ أَخْبَرَنِي أَنَّ صَاحِبَ
الْقَصْرِ لَنْ يَتَأَخَّرَ عَلَيْنَا طَوِيلًا..»



ظَلَلْتُ مُحَافِظًا عَلَى صَمْتِي وَقَدْ ازْدَادَتْ حَيْرَتِي : «إِذْنٌ فَهْمٌ فِي انْتِظَارِ
صَاحِبِ الْقَصْرِ نَفْسِهِ، لَكِنْ مَا شَأْنِي لِأَنْضَمَّ إِلَيْهِمْ؟!». .
تَأَمَّلْتُهُمْ.. كُلُّهُمْ يَرْتَدُّونَ مَلَابِسَ خَشِنَةً تَدُلُّ عَلَى رِقَّةِ الْحَالِ، وَشَعْرٌ
لَحِيَّةٍ كُلٌّ مِنْهُمْ مُشَعَثٌ غَيْرٌ مُنَسَّقٌ.
وَاصَلْتُ حِوَارِي الدَّاخِلِيِّ : «هَلْ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَمْ هِيَ الصَّدْفَةُ
جَمَعْتُهُمْ كَمَا جَمَعْتَنِي مَعَهُمْ؟ وَمَا الْغَرَضُ مِنْ اجْتِمَاعِهِمُ الَّذِي يَرْتَبِطُ
بِمَجِيءِ صَاحِبِ الْقَصْرِ؟». .
وَمَعَ قَلْقِي بِسَبَبِ كُلِّ هَذَا الْغُمُوضِ، لَمْ أَفْصِحْ بِكَلِمَةٍ عَنِ خَوَاطِرِي
الْحَائِرَةِ.



سَأَلَنِي شَخْصٌ آخَرٌ مِنَ الْجَالِسِينَ فِي صَوْتٍ مُسْتَفِزٍّ: «هَلْ تَسْمَعُنَا؟!»
ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الْبَاقِينَ وَقَالَ سَاخِرًا: «يَبْدُو أَنَّهُ أَبْكُمْ!» ثُمَّ أَضَافَ فِي
نَفْسِ اللَّهْجَةِ السَّاخِرَةِ: «أَوْ لَعَلَّهُ يَخَافُ مِنَّا!!»
وَضَحِكَ ضَحْكَةً خَشِنَةً!.

وَلَمَّا كُنْتُ لَا أَحِبُّ أَنْ أَصْبِحَ مَحَلَّ اهْتِمَامٍ خَاصٍّ، فَقَدْ اضْطَرَرْتُ إِلَى
التَّعْبِيرِ بِصَدْقٍ عَنِ حَالَتِي.. قُلْتُ: «بَلْ أَنَا مُتْعَبٌ أَكَادُ أُسْقَطُ مِنَ الْإِرْهَاقِ
وَالْإِعْيَاءِ».

سَأَلَنِي السَّاخِرُ الْمُسْتَفِزُّ: «مِنَ الْإِرْهَاقِ أَمْ الْجُوعِ؟!» ثُمَّ وَاصَلَ إِطْلَاقَ
ضَحِكَاتِهِ.

وَأَحْسَسُ الْجَالِسُ بِجَوَارِي بَخْشُونَةِ الْمُسْتَفِزِّ فَأَسْرَعَ يَقُولُ: «نَحْنُ
جَمِيعًا فِي انْتِظَارِ تَنَاوُلِ الْعِشَاءِ مَعَ صَاحِبِ الْقَصْرِ!».



٥ الحكايات تَخْلُوْ اثناء العشاء

فُوجِدْتُ بِضَوْءِ مِشْعَلٍ يَتْرَامِي مِنْ بَابٍ اِحْدَى قَاعَاتِ الطَّابِقِ الْاَرْضِيِّ
الْمُطَلَّةِ عَلَي الْفِنَاءِ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تُضِيئُهُ اِلَّا نَجُومُ السَّمَاءِ.. عِنْدِيذٍ تَذَكَّرْتُ
اَنْنِي شَاهَدْتُ بَعْضَ الْاَضْوَاءِ الْخَافِتَةِ فِي تِلْكَ الْقَاعَةِ، تُصَاحِبُهَا اَصْوَاتٌ
خَافِتَةٌ لَمْ تَكْشِفْ لِي عَنْ شَيْءٍ.

ثُمَّ ظَهَرَ مِنَ الْبَابِ تَابِعٌ يَحْمِلُ مِشْعَلًا يُضِيءُ الطَّرِيقَ اَمَامَ رَجُلٍ يَبْدُو
عَلَيْهِ التَّقَدُّمُ فِي الْعُمُرِ، فَقَدْ تَرَاقَصَ ضَوْءُ الْمِشْعَلِ عَلَي شَعْرِ لِحْيَتِهِ
الْاَبْيَضِ الَّذِي اَحْسَنَ تَسْوِيَّتَهُ، كَمَا كَانَ يَمْشِي مُتَوَكِّنًا عَلَي عَصَا.

وَقَفْنَا لِتَحِيَّتِهِ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ نَاحِيَّتِنَا وَابْتِسَامَةً تَرْحِيْبٍ عَلَي شَفْتَيْهِ
كَأَنَّهُ يَعْرِفُنَا مِنْذُ زَمَنٍ.. قَالَ: «اَهْلًا بِضِيُوْفِي عَلَي الْعِشَاءِ هَذَا الْمَسَاءِ..
اَرْجُو اَلَّا اَكُوْنَ قَدْ تَاخَّرْتُ عَلَيْكُمْ.. تَفَضَّلُوا...».



وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى مَدْخَلِ الْقَاعَةِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا، وَتَرَكَنَا نَتَقَدَّمُهُ خَلْفَ
التابع الذي قادنا إلى المائدة التي سبق إعدادها.

جَلَسَ صَاحِبُ الْبَيْتِ عَلَى بَعْضِ الْوَسَائِدِ الَّتِي تَنَاطَرَتْ حَوْلَ «صَيْنِيَّةِ
العشاء» الحافلة باللحوم والخضراوات والحلوى والفواكه والخبز،
ودعانا في بساطة إلى اتخاذ أماكننا حولها. ورغم إحساسي الشديد
بالجوع، حاولت المحافظة على ما اعتدت عليه من تمهل عندما أجلس
أمام المائدة، بينما انقضت الأربعة الذين كانوا معي يتسابقون في نقل
ما على «الصينية» إلى أفواههم!!.

كنت أراقب صاحب البيت خفية وهو يتأمل طريقة كل واحد منا في
تناول الطعام وقد رُحنا نأكل والصمت يسود بيننا، فنحن غرباء لم يسبق
أن عرف أحدنا الآخر، لذلك لم تكن هناك موضوعات مشتركة يمكن
تبادل الحديث حولها. وأراد صاحب البيت كسر حاجز الصمت فقال:
«قد يتساءل أحدكم عن السبب في استضافتي خمسة على العشاء كل
ليلة.. السبب ببساطة أنني لا أبتغي إلا رضا الله، كما أحب كثيرا
الاستماع إلى الحكايات».

وتمهل قبل أن يضيف: «والحكايات تحلو أثناء العشاء، فهل عند
أحدكم حكاية تسلينا أو تعطينا خبرة ومعرفة؟».



٦ حكاية نحيها على انفراد

لَمْ يَكُنْ عِنْدَ زُمَلَائِي أَسْتَعْدَادٌ لِلتَّوَقُّفِ عَنِ ابْتِلَاعِ الطَّعَامِ، بَيْنَمَا قَصُّ الْحِكَايَاتِ يَحْتَاجُ إِلَى تَفَرُّغِ الْفَمِ لِلْكَلامِ وَلَيْسَ لِلْمَضْغِ!



عِنْدِي وَجَدْتُ صَاحِبَ الْبَيْتِ كَأَنَّمَا يَتَوَجَّهُ بِحَدِيثِهِ لِي أَنَا عِنْدَمَا لَمْ
يَجِدْ أَحَدًا غَيْرِي قَدْ تَوَقَّفَ عَنِ الْمَضْغِ :

«مَثَلًا.. هَلْ عِنْدَ أَحَدِكُمْ حِكَايَةٌ عَنْ شَخْصٍ أَصَابَهُ الظُّلْمُ بِسَبَبِ سَعْيِهِ
لِخَيْرِ الْفُقَرَاءِ وَالْبُسَطَاءِ مِنَ النَّاسِ؟».

لَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا أَحْسَسْتُ أَنَّ صَاحِبَ الْبَيْتِ أَدَارَ حَدِيثَهُ بِعِنَايَةٍ مِنْذُ
الْبَدَايَةِ لِيَصِلَ إِلَى الْإِقَاءِ هَذَا السُّؤَالِ!..

هَمَسْتُ لِنَفْسِي وَقَدْ اسْتَشَعَرْتُ الْحَذَرَ :

«هَذَا الشَّيْخُ الْوَقُورُ الَّذِي يَبْدُو عَلَيْهِ الصَّلَاحُ، هَلْ هُوَ عَيْنٌ مِنْ عِيُونِ
رِجَالِ السُّلْطَانِ، يَجْعَلُ مِنْ دَعْوَتِهِ الْغُرَبَاءَ إِلَى الْعِشَاءِ فِي بَيْتِهِ وَسِيلَةً
لِيَصِلَ إِلَى شَخْصٍ يَعْرِفُ بَعْضَ أَخْبَارِي أَوْ أَخْبَارَ غَيْرِي؟!».

فِي تَصْمِيمِ قَرَّرْتُ تَغْيِيرَ مَجْرَى الْحَدِيثِ.. قُلْتُ :

« أَظُنُّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى طَلَبِ مِثْلِ هَذَا النُّوعِ مِنْ
الْحِكَايَاتِ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْكَرِيمُ، إِلَّا مُعَانَاكَ أَنْتَ نَفْسِكَ مِنْ ظُلْمٍ شَدِيدٍ
نَتِيجَةَ اهْتِمَامِكَ بِمُصْلِحَةِ الْآخِرِينَ! ».

التفتَ نَحْوِي بِنَظْرَةٍ حَافِلَةٍ بِالتَّسَاؤُلَاتِ، جَعَلْتَنِي أَفْهَمُ أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ
لَهُ تَلَقِّي مِثْلِ هَذِهِ الْمَلَا حِظَةِ مِنْ غَيْرِي عَلَى مَائِدَتِهِ.

حَدَّثْتُ نَفْسِي : «هَلْ يُرِيدُ الْاسْتِمَاعَ لِي، أَمْ أَرَادَ الْبَحْثَ عَمَّنْ يَسْتَمِعُ

إِلَيْهِ؟!».

فُوجِئْتُ بِهِ يُوجَّهُ الْحَدِيثَ لِي مُبَاشَرَةً : «أَرْجُو أَنْ تَنْتَظِرَ قَلِيلًا بَعْدَ
انْتِهَاءِ الْعِشَاءِ، مَا دَمْتَ أَنْتَ الَّذِي اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكْتَشِفَ شَيْئًا يَتَعَلَّقُ بِمَا
يُدُورُ فِي زِهْنِي.. سَيَكُونُ لِي مَعَكَ حَدِيثٌ خَاصٌّ».

أَحْسَسْتُ بِالْقَلْقِ.. اسْتَيْقِظْتُ دَاخِلِي كُلَّ إِنْذَارَاتِ الْحَذَرِ!.

٧ الحذر والشك !!

«هل تركت خلفك زوجة وأبناء؟»
فاجأني الشيخ صاحب الدار بالسؤال كأنه لطمني به على رأسي..
قفزت واقفاً فظن أنني أتأهب للفرار..
كان الأربعة الآخرون الذين تناولوا العشاء معي قد انصرفوا،
فتركني الشيخ وحدي ودخل لحظات إلى غرف داره الداخلية، ثم عاد
يجلس بجواري صامتاً حتى فاجأني بالسؤال..
وجاءني صوته الهادي: «أنا أعرف شعور من تطارده الجواسيس..
يصعب عليه التفرقة بين العدو والصديق!»
ما الذي جعله يتحدث عن الجواسيس؟!
ندمت على تسرعي الذي كاد يكشف أمري..
وتوقفت في مكاني أسدّد بصرى إلى وجهه الذي لم يظهر عليه أي
انفعال، محاولاً قراءة ما يختفي من أسرار خلف ملامحه التي تفيض
بالسماحة والاطمئنان.



عِنْدَئِذٍ تَذَكَّرْتُ أَنَّ الْهَجُومَ أَفْضَلُ وَسِيلَةٍ لِلدَّفَاعِ ، فَقُلْتُ وَقَدْ تَنَاسَيْتُ
أَلْفَاظَ التَّفْخِيمِ وَالْمَجَامِلَةِ ، وَلَعَلِّي وَجَدْتُهُ قَدْ بَدَأَ يُعَامِلُنِي بِاعْتِبَارِي
نِدَاءً لَهُ : « بَلْ أَنْتَ الَّذِي تُخْفِي سِرًّا يَجْعَلُكَ تَدْعُو إِلَى بَيْتِكَ مَنْ تَظُنُّهُمْ
يَهْرَبُونَ مِنَ الْجَوَاسِيْسِ ! » .

ضَحِكَ فِي وَدٍّ لِيَرِدَ الْأَطْمِئِنَانَ إِلَى قَلْبِي :
« لَيْسَ ظَنًّا .. صَمْتُكَ وَحَذْرُكَ وَأَسْلُوبُكَ فِي التَّفْكِيرِ وَالْحَدِيثِ ، وَطَرِيقَةُ
تَنَاوُلِكَ الطَّعَامِ ، كُلُّ هَذَا أَكَّدَ لِي أَنَّكَ صَاحِبُ مَكَانَةٍ عَالِيَةٍ ، اضْطَرَّتْكَ
أَسْبَابٌ إِلَى التَّخْفِيِّ وَالْهَرَبِ .. أَمَّا الشَّيْخُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ فَهُوَ صَاحِبُ
فِرَاسَةٍ اسْتَطَاعَ بِهَا أَنْ يَقْرَأَ فِي وَجْهِكَ وَتَصْرُفَاتِكَ أَهَمَّ أَسْرَارِكَ ، لِذَلِكَ
أَرْسَلَكُ إِلَى دَارِي ! » .







لَمْ أَسْتَطِعْ حَسَمَ تَرْدِي..
 هَلْ أَتْرِكُ الشَّيْخَ وَأَسْرِعُ بِالْفِرَارِ لِأَخْتَفِي بَيْنَ جُمُوعِ النَّاسِ فِي دِمَشْقَ،
 أَمْ أَتْرِيْتُ لِأَصِلَ إِلَى سِرِّ سُؤَالِهِ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْأَبْنَاءِ؟
 بَلْ شَغَلْتَنِي الرَّغْبَةُ فِي الْوُصُولِ إِلَى سِرِّهِ هُوَ، وَهَلْ يَعْمَلُ لِحِمَايَةِ
 الْمَظْلُومِينَ أَمْ يَسَاعِدُ مَنْ ظَلَمُوهُمْ؟!
 مُقَامَرَةٌ خَطِيرَةٌ، لَكِنْ دَافِعًا قَوِيًّا أَلْحَ عَلَيَّ لِأَكْتَشِفَ مَا الَّذِي يَعْرِفُهُ عَنِّي،
 بَغَيْرِ أَنْ أَسْمَحَ لَهُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْحَقَائِقِ حَوْلَ حَيَاتِي!.
 كَانَ عَدَمُ الْإِطْمِئْنَانِ وَالْحَذَرُ وَالشُّكُّ، كُلُّ هَذَا يَمْنَعُنَا مِنَ الْمُصَارَحَةِ..
 أَخِيرًا قَالَ: «إِذَا كُنْتَ أَنْتَ حَقًّا مِنْ أَبْحَثُ عَنْهُ، فَلَعَلَّ أَقْصَرَ طَرِيقَ لِكَيَّ
 تَتَّقَ بِي أَنْ أَحْكِيَ لَكَ قِصَّتِي الَّتِي لَمْ يَسْمَعْهَا مِنِّي أَحَدٌ قَبْلَكَ، فَقَدْ تَكُونُ
 بِشَخِصِكَ أَحَدَ أَطْرَافِ هَذِهِ الْقِصَّةِ!».

٨) أن تبقى الأمور سرًا

بدأ الشيخ حكايته قائلاً: «عملت أمين سرّ الوزير «نعمان السليمانى» ووكيلاً له عندما كان وزيراً لوالد السلطان الحالى فى بغداد.. كل أسرارهِ عندي وأتولى بنفسى تنفيذ معظم المهام التى يكلفه بها السلطان.





وَكَانَ يُكَلِّفُنِي أحيانًا بِتَنْفِيدِ بَعْضِ الْأوامِرِ الَّتِي لَا يَرْضَى عَنْهَا،
عِنْدَنِي يَغْمِضُ عَيْنَيْهِ عَنْ «طَرِيقَةِ تَنْفِيدِي» لَهَا، وَيَتْرَكُ لِي أَنْ «أَحْسِنَ
التَّصَرُّفَ» لِأَمْنِ وَقُوعِ ظَلْمِ فَادِحٍ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ.

شَرَطَ الْوَزِيرُ نِعْمَانَ الْوَحِيدِ أَنْ تَبْقَى مِثْلُ هَذِهِ «التَّصَرُّفَاتِ» سِرًّا بَيْنَنَا
لَا يَعْرِفُهُ ثَالِثٌ!..

كَانَ يَهْمِسُ لِي فِي تَأْكِيدٍ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى: «سَتَتَحَمَّلُ وَحْدَكَ نَتَائِجَ
أَيَّةِ مُخَالَفَةٍ، فَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ أَنَا لَمْ أَطْلُبْ مِنْكَ إِلَّا الطَّاعَةَ الْمُطْلَقَةَ!».
وَبَقَدَّرَ الْخُطُوبَةَ الْبَالِغَةَ لِهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَقُومُ بِهِ، وَالَّتِي قَدْ تَصَلُّ إِلَى
حَدِّ الْإِطَاحَةِ بِرَأْسِي، فَإِنَّ تَحْقِيقَ بَعْضِ الْعَدَالَةِ أحيانًا، وَحِمَايَةَ بَرِيءٍ
مِنَ الظُّلْمِ فِي أحيانٍ أُخْرَى، كَانَ هُوَ مَا يَجْعَلُ لِحَيَاتِي مَعْنَى وَهَدَفًا.

٩) لكي لا يُثير التعاطف ثائرة الناس

ذات ليلة عاد الوزيرُ ومعهُ عربةٌ مقلّعةٌ دخلَ بها فناءَ دارِهِ، فتحنّأها بهدوءٍ ثمّ تعاونًا لنُخرجَ منها رجلاً مُغطّيَ الوجهِ مُقيّداً بالسَّلاسلِ والأغلالِ.. أخذناه إلى غرفةٍ جانبيّةٍ صغيرةٍ أغلقناها عليه، لكي لا يعرفَ أحدٌ من أهلِ البيتِ أو العاملينَ فيه خبرَ وجودِهِ.



هَمَسَ الْوَزِيرُ: «هَذَا هُوَ أَبُو الْفَضْلِ الدِّينَارِيُّ» أَمِينُ دِيْوَانِ بَيْتِ الْمَالِ،
سَلَّمَهُ لِي السُّلْطَانُ لِأَحْفَظَهُ سِرًّا فِي بَيْتِي وَتَحْتَ رِقَابَتِي إِلَى الْغَدِ حَتَّى
يُفْصَلَ فِي أَمْرِهِ، وَأُظُنُّ نِهَائِتَهُ لَنْ تَتَأَخَّرَ عَن صَبَاحِ الْيَوْمِ الْجَدِيدِ!..»
هَذَا تَوَقَّفَ الشَّيْخُ عَن حِكَايَتِهِ لِيَقُولَ لِي: «الدِّينَارِيُّ كَانَ مِنْ أَقْرَبِ
أَصْدِقَائِي، أَثِقُ أَنَّهُ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ نَزَاهَةً وَمُحَافَظَةً عَلَى خَزَائِنِ بَيْتِ
الْمَالِ، وَرِثَ عَن وَالِدِهِ أَمْوَالًا طَائِلَةً لَا تَقَعُ تَحْتَ الْحَصْرِ تُغْنِيهِ عَنِ
الْحَاجَةِ لِطَلْبِ الْمَزِيدِ، وَتَجْعَلُ تَلَاعِبَهُ بِمَمْتَلِكَاتِ بَيْتِ الْمَالِ أَمْرًا
يَسْتَحِيلُ التَّفَكِيرُ فِيهِ. وَحَتَّى الْآنَ لَا أَفْهَمُ لِمَاذَا قَبِلَ تِلْكَ الْوِظِيْفَةَ
الْمُحْفَوْفَةَ بِالْمَخَاطِرِ وَحَسَدِ الْحَاسِدِينَ، لَكِنَّهُ سِحْرُ الْمَنْصِبِ وَإِعْرَءِ
السُّلْطَةِ، فَاسْمَعْ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْمَنْصِبِ وَالسُّلْطَانِ!!».

وَعَادَ الشَّيْخُ إِلَى حِكَايَتِهِ، فَقَالَ إِنَّ الْوَزِيرَ نَعْمَانَ قَالَ لَهُ: «لِسُوءِ حَظِّ
الدِّينَارِيِّ، عَرَفَ الْحَاسِدُونَ الْوُشَاةَ أَنَّهُ لَمْ يُثْبِتْ كُلَّ مَا وَرَثَهُ عَن وَالِدِهِ
فِي الْإِعْلَامِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي اسْتَصْدَرَهُ مِنَ الْقَاضِي بَعْدَ مَوْتِ وَالِدِهِ، فَقَدْ
حَدَّثَتِ الْوَفَاةَ قَبْلَ تَعْيِينِهِ أَمِينًا لِدِيْوَانِ بَيْتِ الْمَالِ، وَلَمْ يَطْفُ بِخَاطِرِهِ
أَنَّ إِثْبَاتَ كُلِّ التَّرَكَةِ فِي وَثِيْقَةٍ أَمَامَ الْقَاضِي سَيَحْمِيهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ
وُشَاةِ الْوُشَاةِ.

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا إِهْمَالًا مِنْهُ، فَمَعْظَمُ النَّاسِ لَا يُبَيِّنُونَ فِي تِلْكَ الْمُسْتَنْدَاتِ
الشَّرْعِيَّةِ إِلَّا «الْعَقَارَاتِ الثَّابِتَةَ» مِثْلَ الْبُيُوتِ وَالْأَرَاضِي، الَّتِي تَحْتَاجُ عِنْدَ
بَيْعِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَى وَثِيْقَةٍ تُؤَكِّدُ مِلْكِيَّتَهُمْ لَهَا عَن طَرِيقِ الْمِيرَاثِ.
وَفُوجِيَ الدِّينَارِيُّ بِالسُّلْطَانِ يَسْتَدْعِيهِ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ بَيْتِهِ بَعْدَ

حُلُولِ ظِلَامِ اللَّيْلِ وَيُوجَاهُهُ بِاتِّهَامِ خَطِيرٍ.. قَالَ لَهُ مُتَوَعِّدًا: «بَلِّغْنِي
أَنَّكَ تُخْفِي فِي أَمَاكِنَ سَرِيَّةٍ مِنْ دَارِكَ مَبَالِغَ طَائِلَةٍ تَخْصُ بَيْتَ الْمَالِ».
أُصِيبَ الدِّينَارِيُّ بِصَدْمَةٍ عِنْدَ سَمَاعِهِ هَذَا الْاِتِّهَامَ الَّذِي هُوَ أَبْعَدُ مَا
يَكُونُ عَنْهُ، فَقَالَ فِي ثِقَةٍ: «كُلُّ مَبْلَغٍ دَخَلَ بَيْتَ الْمَالِ مَرْصُودٌ فِي دَفَاتِرِهِ،
وَكَلُّ مَبْلَغٍ خَرَجَ مِنْ خَزَائِنِهِ مُبَيَّنٌّ أَمَامَهُ فِي السَّجَلَاتِ اسْمُ الْمَسْئُولِ
الَّذِي أَمَرَ بِصَرْفِهِ وَبَيَانَاتٌ عَنِ الشَّخْصِ الَّذِي قَبِضَهُ وَتَسَلَّمَ».
قَالَ السُّلْطَانُ وَقَدْ مَلَأَ الْوُشَاةُ زِهْنَهُ بِالْاَكَاذِيبِ: «التَّزْوِيرُ فِي دَفَاتِرِ
بَيْتِ الْمَالِ مُشْكَلَةٌ اسْتَعْصَتْ عَلَى الرَّقَبَاءِ.. عَلَيْكَ أَنْ تُسَلِّمَ فَوْرًا إِلَى
بَيْتِ الْمَالِ كُلِّ مَا تُخْفِيهِ مِنْ أَمْوَالٍ!».

فِي ثَبَاتٍ قَالَ الدِّينَارِيُّ: «بَلْ هِيَ أَمْوَالٌ وَرِثْتَهَا عَنْ وَالِدِي!».
سَأَلَهُ السُّلْطَانُ: «هَلْ كُلُّ مَا وَرِثْتَهُ ثَابِتٌ فِي حُجَّةِ التَّرْكَةِ الشَّرْعِيَّةِ
الصَّادِرَةِ عَنْ أَحَدِ الْقُضَاةِ الَّذِينَ أُصْدَرْنَا أَمْرُنَا بِتَعْيِينِهِمْ؟».



هنا أدرك الديناري الحفرة التي حفروها له، فهو لم يُثبت في الوثيقة الرسمية الشرعية، «الأموال السائلة» من دنانير وذهب ومجوهرات وغيرها من «المنقولات» الثمينة، وهي شيء كثير جداً. لذلك عندما فوجئ بالسؤال تردد وتلعثم أمام السلطان!. وختم الوزير نعمان حكايته قائلاً:

«عندئذ أمر السلطان بوضع القيود في يدي الديناري وقدميه». كانت سمعة الديناري تملأ البلد كله، فقد عرفه الناس لا يتأخر في استصدار الأوامر لإغاثة أي ملهوف، بل كثيراً ما يعطي المحتاجين بسخاء من ماله الخاص، فتناقل الناس أخبار فضله وكرمه. وبسبب هذه السمعة الطيبة، أضاف الوزير:

«وخشية أن يثير التعاطف معه ثائرة الناس، طلب مني السلطان المحافظة على واقعة القبض عليه سرًا لا أطلع عليه أحدًا، لذلك وضعت الرجل في تلك الغرفة المنعزلة، وستكون أنت شخصيًا حارسه فيها حتى الصباح!».

كانت تلك إحدى المرات التي يكلفني فيها الوزير بمثل هذه المسؤولية الخطيرة الحساسة، لكنها تعلقت هذه المرة بشخص أحبه وأحترم، فهو من الأصدقاء الأعزاء، لذلك لم يغمض لي جفن طوال الليل وأنا أفكر في مدى الظلم الذي سيقع عليه، أتأمل وجهه وقد التزم الصمت تمامًا..

كان مصابًا بصدمة قاسية لا يستطيع الإفاقة منها!.

١٠ تحايل حتى تستاجر البيت

عَرَفْنَا فِي الصَّبَاحِ خَبَرَ اقْتِحَامِ جُنْدِ السُّلْطَانِ جَمِيعَ بِيُوتِ الدِّينَارِيِّ،
وَأَنَّهُمْ فَتَّشَوْهَا وَصَادَرُوا كُلَّ مَا عَثَرُوا عَلَيْهِ مِنْ ثَرَوَةٍ وَأَمْوَالٍ.
وَأَذَاعَ رِجَالُ السُّلْطَانِ حِكَايَةَ عَنْ هَرَبِ الدِّينَارِيِّ عِنْدَمَا عَرَفَ
بِانْكَشَافِ أَمْرِهِ.

وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ أَمَرَ السُّلْطَانُ الْوَزِيرَ نَعْمَانَ بِالتَّخْلِصِ سِرًّا مِنَ
الدِّينَارِيِّ كَيْ لَا يَعْرِفَ أَحَدٌ مَصِيرَهُ، لِتَفَادِي قِيَامِ فِتْنَةٍ وَلَمَنْعِ النَّاسِ
مِنَ الثُّورَةِ بِسَبَبِهِ. وَكَلَّفَنِي الْوَزِيرُ بِتَنْفِيذِ هَذَا الْأَمْرِ الظَّالِمِ الْجَدِيدِ!





وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، كَانُوا يَرْبُطُونَ حَجْرًا ثَقِيلَ الْوِزْنِ إِلَى قَدَمِي
الضَّحِيَّةِ، ثُمَّ يُلْقُونَ بِهِ سِرًّا تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ فِي نَهْرٍ دَجَلَةٌ، وَهُمْ
وَاثِقُونَ أَنَّ الْأَسْمَاكَ سَتَمَحُو مَلَامِحَهُ خِلَالَ أَيَّامٍ.
وَفِي الْمَسَاءِ أَبْلَغْتُ الْوَزِيرَ بِتَنْفِيذِ الْأَمْرِ.

وَكُنْتُ أَمَامَ مِثْلِ هَذِهِ الْأَوَامِرِ غَيْرِ الْعَادِلَةِ، أَسْعَى لِتَهْرِيْبِ الضَّحِيَّةِ
سِرًّا إِلَى مِصْرَ، بِشَرْطِ أَنْ يَنْسِيَ النَّاجِي بِحَيَاتِهِ مَاضِيَهُ كُلَّهُ وَيَعِيشَ
تَحْتَ اسْمٍ مُخْتَلَفٍ وَفِي شَخْصِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

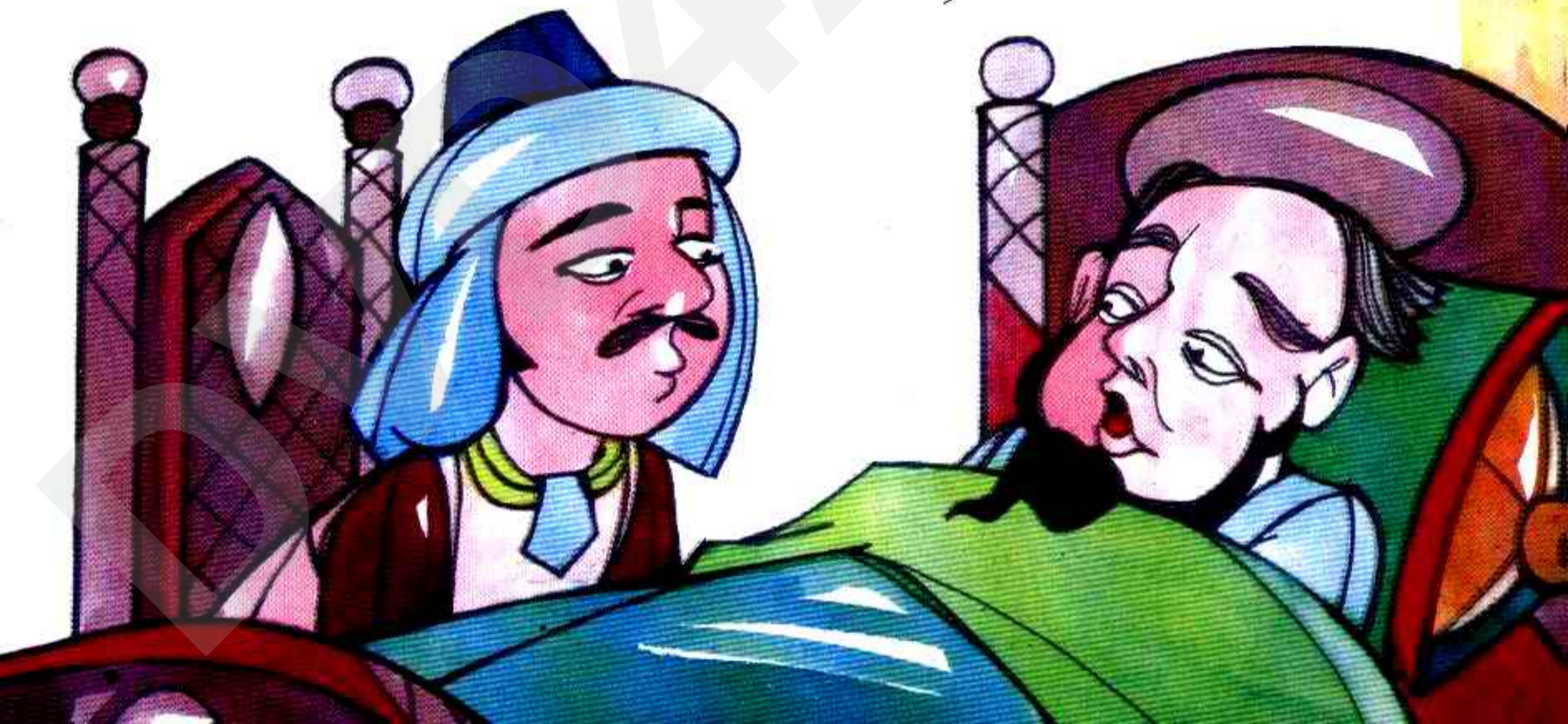
أَمَّا الدِّينَارِيُّ فَقَدْ كَانَ أَشْهَرَ مِنْ قُدْرَتِي عَلَى إِخْفَاءِ أَمْرِهِ عَنِ الْحُكَّامِ
فِي مِصْرَ، لِذَلِكَ عَمَلْتُ عَلَى تَهْرِيْبِهِ إِلَى ضَيْعَةٍ لِي بَعِيدَةٍ عَنِ بَغْدَادَ،
أَهْلِهَا فَلَاحُونَ لَا يُمَارِسُونَ إِلَّا زِرَاعَةَ الْأَرْضِ وَيَجْهَلُونَ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ
أُمُورِ السِّيَاسَةِ وَالْحُكْمِ وَلَا يُلْقُونَ بَالًا لِأَخْبَارِ رِجَالِ السُّلْطَةِ.

وَكُنْتُ أَدْبَرُ أَمْرَ إِرْسَالِهِ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ أَوْ فَارِسَ؛ لِيَبْتَعِدَ تَمَامًا عَنِ
عُيُونِ رِجَالِ السُّلْطَانِ، لَكِنَّهُ ظَلَّ صَامِتًا فِي ضَيْعَتِي لَا يَغَادِرُ فِرَاشَهُ إِلَّا
نَادِرًا، إِلَى أَنْ أَصَابَهُ مَرَضُ الْفَالَجِ بِشَلْلِ مَنْعِهِ مِنَ الْحَرَكَةِ.

وَبَقِيَ شُهُورًا طَوِيلَةً طَرِيحَ الْفِرَاشِ، كُنْتُ خَلَالَهَا أَقُومُ بِتَمْرِيبِهِ
بِنَفْسِي كُلَّمَا سَافَرْتُ إِلَى ضَيْعَتِي، بَلْ أَكْثَرْتُ مِنَ التَّرُدِّ عَلَيْهَا لِأَشْرَفِ
بِنَفْسِي عَلَى اِحْتِيَاجَاتِهِ؛ كَيْ أَخْفَ وَلَوْ قَلِيلًا مِنْ مَرَارَةِ اِحْسَاسِهِ بِالظُّلْمِ
الشَّدِيدِ؛ وَحَتَّى أُعِيدَ إِلَيْهِ الثِّقَّةُ فِي أَنَّ هُنَاكَ مَنْ لَا يَشُكُّ فِي بَرَاءَتِهِ،
وَأَنَّ المَجْتَمَعَ بِهِ شُجْعَانٌ عَلَى اسْتِعْدَادِ اللُّوقُوفِ ضِدَّ الظُّلْمِ.
لَكِنَّ كُلَّ مَا فَعَلْتُهُ لَمْ يَمْنَعِ اسْتِمْرَارَ انْهِيَارِ صِحَّتِهِ.

وعندما شعر باقتراب نهايته، استدعاني وقال في كلمات متقطعة
فهمتُها بصُعُوبة: «لا شك أن جنود السلطان قد فتشوا كل بيوتى
وحفروا أرضها وخرّبوا حيطانها بحثًا عن أموالى التى ورثتها عن
والدى، لكنهم لا يعرفون الطريق إلى بيت صغير لم أكن أذهب إليه
إلا متخفيًا متنكرًا. لم يكن ضمن أملاكى فقد استأجرته تحت
اسم مستعار لأتفادى الإفصاح عن اسمى الحقيقى فى حالة إتمام
عقد شراء ذلك البيت أمام شهود».

ثم أعطانى عنوان البيت فى إحدى ضواحي بغداد، وذكر أنه يُطلُّ
على نهر دجلة، وقد ساعده هذا أن يذهب إليه عن طريق القوارب
النهرية بغير أن يضطر إلى استخدام حصانه والسَّير به فى شوارع
بغداد، فتفادى جذب الأنظار.



وأضاف الديناري: «عندما أذهب للقاء ربي، توجه إلى تلك الضاحية، وتحايل حتى تستأجر ذلك البيت. وفي أصغر غرفة منه، وهي الوحيدة التي بغير نوافذ، احفر بجوار حائطها الشرقي.. إنه بعيد عن الطريق فلن يسمع أحد صوت الحفر. وعند عمق قامة الإنسان ستجد صندوقاً من حديد، ذلك أنني تحسباً لتقلبات الأيام، جمعت فيه جزءاً كبيراً من الثروة التي ورثتها عن أبي والتي تلقاها هو عن أجداده».

وختم حديثه قائلاً: «ليس لي زوجة ولا أبناء ولا أمل في أن أبرا من مرضي، لذلك أترك لك هذه الثروة كلها.. لن أنسى أبداً أنك حفظت حياتي وبذلت ما استطعت للعناية بي والتخفيف عني، معرضاً نفسك لأشد الأخطار، وبذلك أصبحت أفضل من صديق وأقرب من ابن.. ثم أضاف: «ولما كنت قد حلمت دائماً أن يكون لي خمسة من الأبناء، فإن لي شرطاً واحداً: أن تطعم مساءً كل يوم خمسة يكونون في حاجة إلى الطعام، لعلّي أوصل بعد رحيلي ما نذرته خلال حياتي من صنع الخير ما استطعت».



١١) تُرِيدُ هَدْمَ الْبَيْتِ

بعدَ رَحِيلِ الديناري للقاءِ رَبِّهِ، لَمْ أَجِدْ صُعُوبَةً فِي الْعُثُورِ عَلَى
الْبَيْتِ بِضَاحِيَةِ بَغدَادَ، لَكِنْ أَصَابَنِي الْفَزَعُ عِنْدَمَا عَرَفْتُ أَنَّ صَاحِبَتَهُ
تَعْتَزِمُ هَدْمَهُ. فَعِنْدَمَا وَجَدَتِ الْمَالِكَةَ أَنَّ مُسْتَأْجَرَ بَيْتِهَا قَدْ اخْتَفَى،
وَمَضَتْ شَهْرًا لَا يُعْطِيهَا الْأَجْرَةَ وَلَا يُرْسِلُهَا إِلَيْهَا، قَرَّرَتْ هَدْمَ الْبَيْتِ
وَإِعَادَةَ بِنَائِهِ مِنْ جَدِيدٍ، بَعْدَ أَنْ اسْتَوْفَتِ الْأَجْرَةَ أَمَامَ شُهُودٍ بِبَيْعِ مَا
تَرَكَهُ الْمُسْتَأْجِرُ فِي الْبَيْتِ مِنْ أَثَاثٍ.



ارتفعت صيحة من أعماقي حافلة بالقلق: «ستضيع معالم مكان الكنز! بل خشيت أيضا ما قد يحدث عند حفر أساسات البيت من جديد، فقد يعثر العمال على صندوق الثروة ويستولون عليه. قررت التحرك بسرعة، مع الحرص أن تكون خطواتي محسوبة بدقة كي لا يكتشف أحد لهفتي على استئجار البيت. عرفت أن المالكة سيده تعيش وحيدة بعد وفاة زوجها وتفرق أولادها، تعتمد في معاشها علي ما تحصل عليه من أجر البيت. قلت لها: «أنا من بغداد.. أريد استئجار بيتك لأقضى فيه بعض الوقت بعيدا عن العاصمة».

قالت باختصار وفي تصميم: «بعد أن أعيد بناءه». قلت في صبر: «حالة البيت جيدة حتى إذا كان في حاجة إلى بعض الترميمات.. خسارة هدمه وإنفاق الكثير على إعادة البناء!». «شاورت نفسها وسألت: «كم تدفع إيجارا له؟».



وَلَمَّا كَانَ هَدْفُهَا الْحُصُولَ عَلَى أُجْرَةٍ أَكْبَرَ، فَقَدْ سَأَلَتْهَا بِدَوْرِي:
«وَكَمْ تَتَوَقَّعِينَ أُجْرَتَهُ بَعْدَ أَنْ تُعِيدِي الْبِنَاءَ؟».

قَالَتْ: «ثَلَاثَةَ دِنَانِيرٍ كُلِّ شَهْرٍ».

كَانَ الْبَيْتُ بِحَالَتِهِ الَّتِي رَأَيْتَهُ عَلَيْهَا لَنْ يَسْتَأْجِرَهُ أَحَدٌ بِأَكْثَرَ مِنْ
نِصْفِ دِينَارٍ، وَخَشِيتُ إِذَا وَافَقْتُ عَلَى دَفْعِ الدَّنَانِيرِ الثَّلَاثَةِ أَنْ أَثِيرَ
شُكُوكَهَا. قُلْتُ مُعْتَرِضًا لَكِنْ فِي رَفْقٍ: «هَذِهِ أُجْرَةٌ مُرْتَفَعَةٌ جِدًّا لِمِثْلِ
هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْإِصْلَاحِ وَالتَّرْمِيمِ».

قَالَتْ فِي غَيْرِ اكْتِرَاثٍ: «قُلْتُ لَكَ أَنْتَظِرُ حَتَّى أُعِيدَ الْبِنَاءَ».

وَأَرَدْتُ أَنْهَاةَ الْمَسَاوِمَةَ فَقُلْتُ: «سَأَعْطِيكَ دِينَارًا كَامِلًا عَنْ كُلِّ
شَهْرٍ».

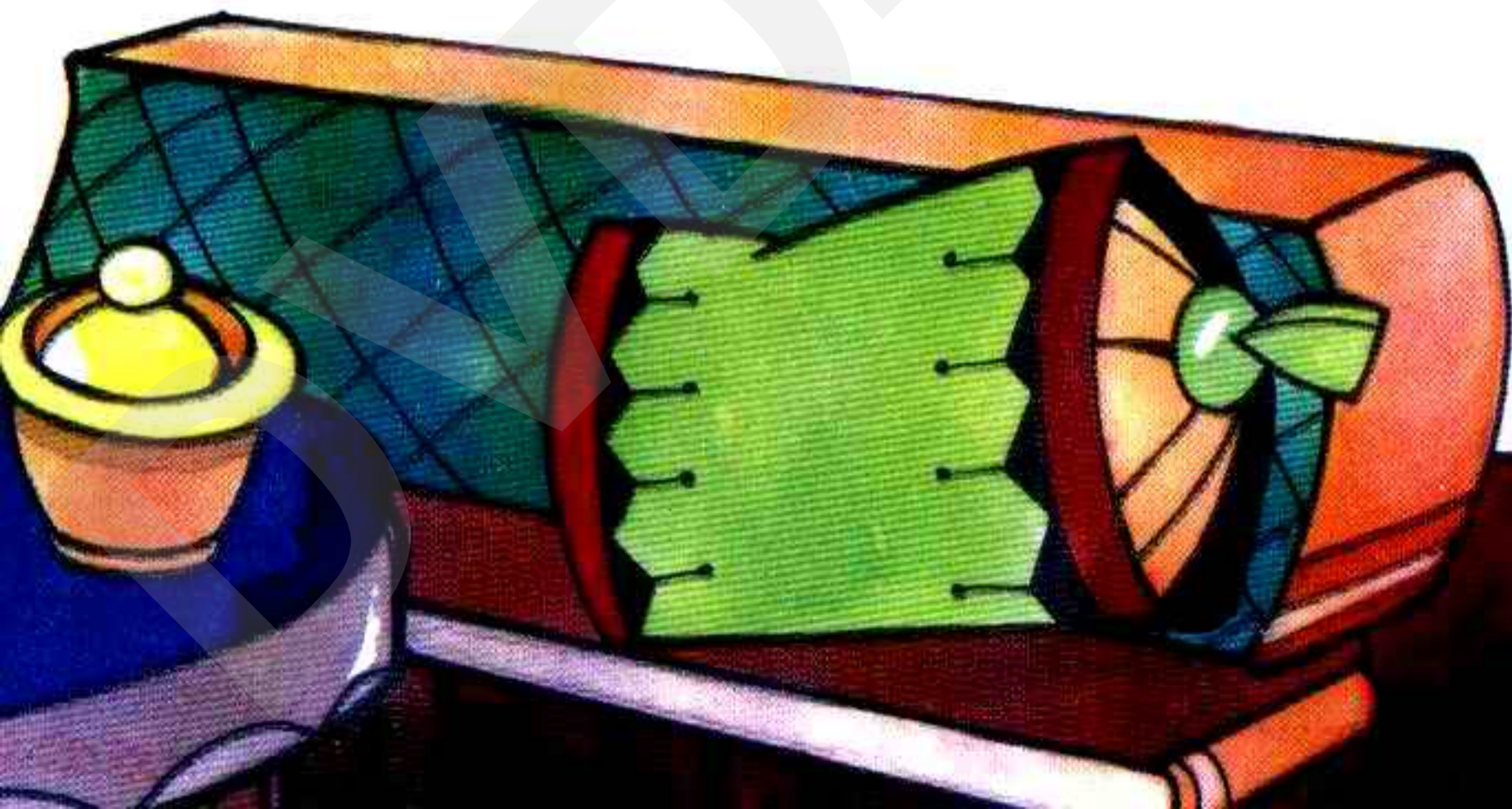
صَاحَتْ تُنذِرُنِي: «وَلَنْ أَنْفِقَ دَرَهْمًا وَاحِدًا عَلَى إِصْلَاحِهِ!».

كَتَمْتُ شُعُورِي بِالرَّاحَةِ، وَقُلْتُ كَأَنَّمَا أَنَا الْخَاسِرُ فِي هَذِهِ الْمَسَاوِمَةِ
مَعَ أَنَّ قِيَامِي بِالتَّرْمِيمِ يَتَّفِقُ تَمَامًا مَعَ أَهْدَافِي:

«وَسَأَقُومُ بِكُلِّ مَا يَلْزِمُ الْبَيْتَ مِنَ إِصْلَاحٍ».

فَاجَأَ عَرَضِي السَّخِيُّ الْمَرْأَةَ فَرَاغَ تَرْدُودُهَا وَوَأَفَقْتُ وَهِيَ تَقُولُ:

«وَأَرْجُو أَنْ يَطُولَ بَقَاؤُكَ فِيهِ، وَالْأَخْتَفِي فَجَاءَةً بغيرِ دَفْعِ مَا عَلَيْكَ مِنْ
أُجْرَةٍ مِثْلَمَا فَعَلَ الْمُسْتَأْجِرُ السَّابِقُ!».



١٢ ثروة تحت الأرض

استخدمت صناديق كبيرة لأنقل فيها ما يحتاج إليه بيت الضاحية
من أثاث ومفروشات.
وتم النقل عن طريق قوارب يستأجرها من يستخدمون نهر دجلة
للسفر، ووصلنا بها إلى الشاطئ أمام بيتي الجديد.
وشاهد الجيران صناديق جارهم الجديد فلم يثر ذلك انتباه أحد،
فمن المعتاد أن ينقل الساكن الجديد ما يحتاج إليه في صناديق على
ظهر السفن النهرية.
وبعدئذ واجهتني المشكلة الرئيسية...



لَقَدْ عَرَضْتُ الْقِيَامَ بِأَعْمَالِ التَّرْمِيمِ لِكَيْ لَا تُسَبِّبَ رُؤْيَا آيَاتِ الْحَفْرِ أَوْ
سَمَاعَ صَوْتِهَا وَأَنَا أَشْتَغِلُ بِهَا أَيَّ نَوْعٍ مِنَ التَّسَاوُلَاتِ، لَكِنَّ هَذَا يَتَطَلَّبُ
تَكْلِيفَ بَعْضِ الْعَمَّالِ لِلْبَدْءِ فِي أَعْمَالِ إِصْلَاحِ الْبَيْتِ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ
أَقُومُ وَحْدِي بِغَيْرِ مَعُونَةٍ مِنْ أَحَدٍ بِالْحَفْرِ لِاسْتِخْرَاجِ الصُّنْدُوقِ الْمَخْبُوءِ.
لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَفْرُجٌ مِنَ الاسْتِفَادَةِ بِفَتْرَةٍ مَا بَعْدَ الْغُرُوبِ عِنْدَمَا يَنْصَرِفُ
الْعَمَّالُ، فَأَقُومُ بِالْحَفْرِ مَعَ أَقَلِّ مَا اسْتَطِيعُ مِنْ ضِجَّةٍ.

بَدَأْتُ الْحَفْرَ بِجَوَارِ الْجِدَارِ الشَّرْقِيِّ لِلْغُرْفَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَا نَوَافِذَ
لَهَا، وَأَرْهَقَنِي الْعَمَلُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ فَلَمْ اسْتَطِعْ مُوَاصَلَتَهُ إِلَّا سَاعَاتٍ
قَلِيلَةً.

وَفِي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ سَمِعْتُ الْفَأْسَ تَطْرُقُ سَطْحًا مَعْدِنِيًّا، فَعَرَفْتُ
أَنَّي لَمْ أَخْطِئِ الطَّرِيقَ إِلَى هَدْفِي.

وَعِنْدَمَا اسْتَطَعْتُ أَحْيَرًا كَشَفْتُ سَطْحَ الصُّنْدُوقِ، وَجَدْتُ مِسَاحَتَهُ
كَبِيرَةً تَدُلُّ عَلَى حَجْمِهِ الْكَبِيرِ.

وَبَعْدَ مَحَاوَلَاتٍ شَاقَّةٍ لِإِزَالَةِ الصَّدَا الْمُتْرَاكِمِ، نَجَحْتُ فِي رَفْعِ
الْغِطَاءِ.. وَشَهَقْتُ!!..

لَمْ يَكُنْ صُنْدُوقًا، بَلْ غُرْفَةٌ كَامِلَةٌ امْتَلَأَتْ حَتَّى حَافَتِهَا بِمَا يَتَلَأَأُ

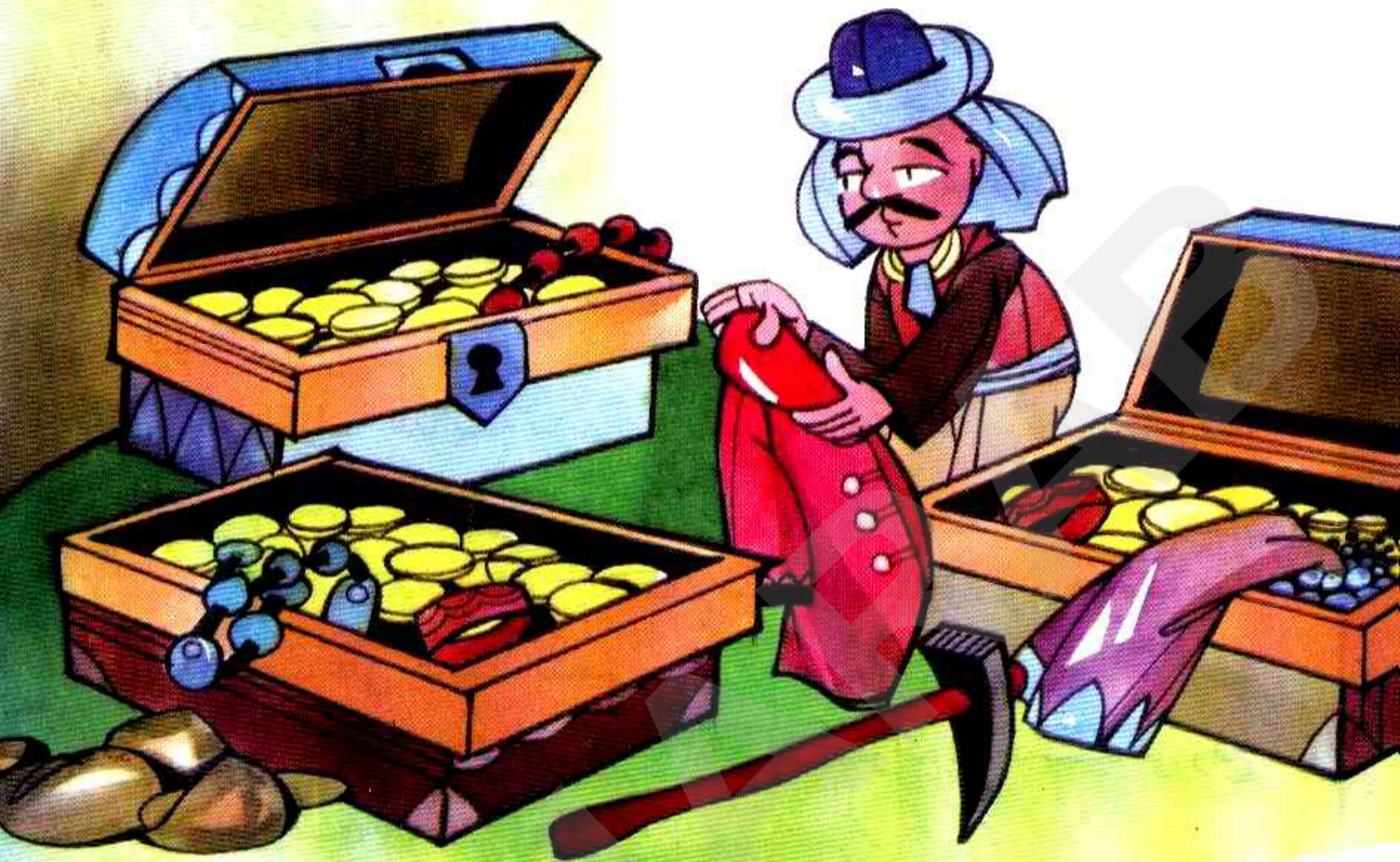


ويسطع ويلمع .. ذهب .. ماس .. زمرد .. ياقوت .. لؤلؤ ..

كميات هائلة .. أكبر كثيرا من أقصى توقعاتي ..

وحزمت أمري بسرعة: «هذا الصندوق لا يمكن رفعه من مكانه ..»

وفي هدوء بدأت أنقل تلك الثروة الهائلة إلى الصناديق التي

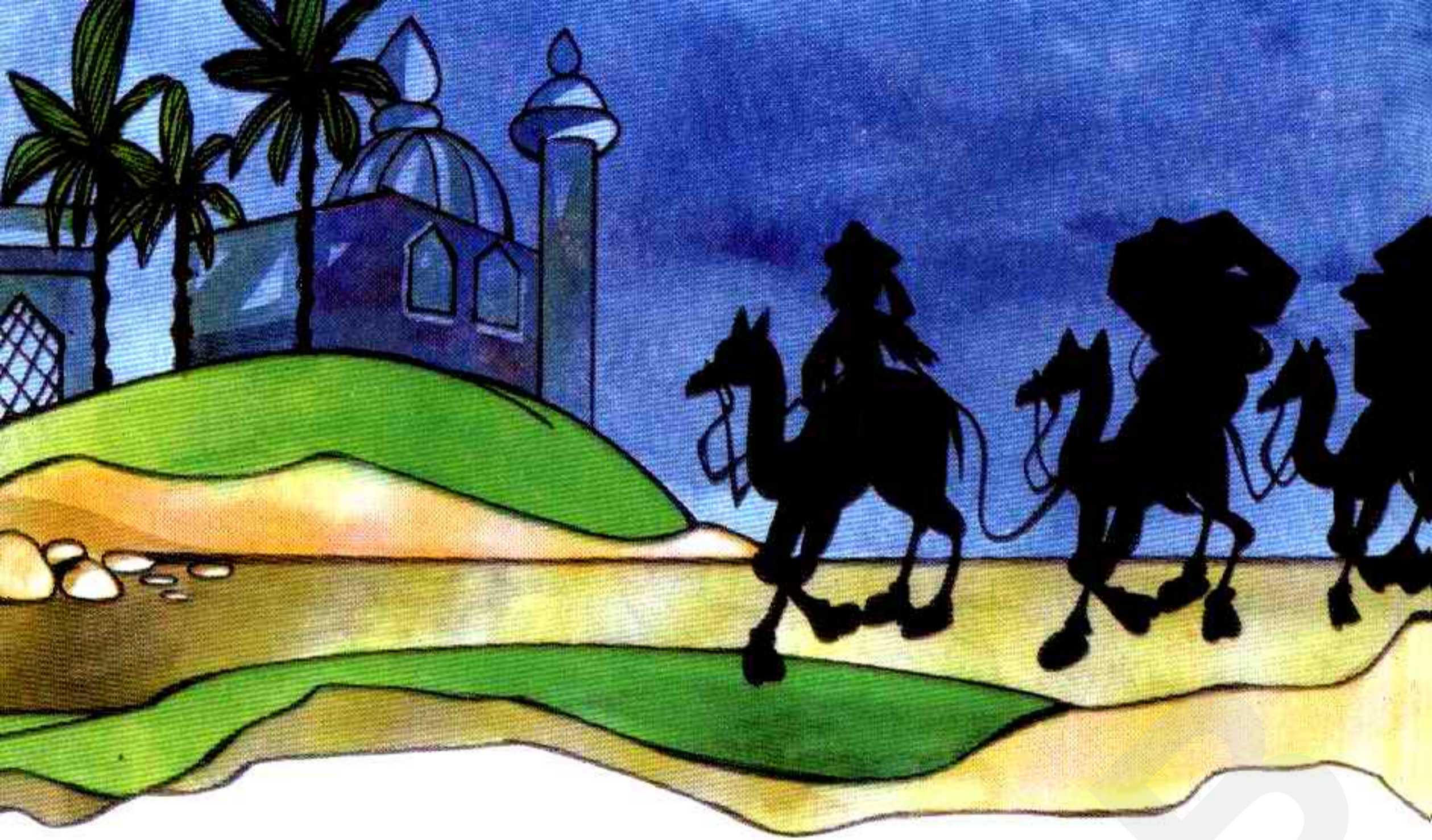


أحضرت الأثاث داخلها، ثم وضعت فوق ما ملأت به كل صندوق بعض

الملابس، وأغلقتها بإحكام.

وعدت عن طريق النهر إلى بغداد ومعى نفس الصناديق التي جئت

بها، بغير أن أثير أية تساؤلات ..



١٣) قافلة إلى دمشق

أصبح بقائي في بغداد محفوفًا بالمخاطر.. سألتُ نفسي: «كيف أبيع من تلك الكنوز في أسواق بغداد بغير أن أثير الشبهات وأنا من أشهر شخصيات المدينة؟!».

كذلك بدأت مخاوفي تتزايد خشية أن يكتشف أحد الجواسيس تحايلي على بعض أوامر السلطان وعدم تنفيذها، فيضع عنقي تحت سيف الجلاد! لذلك أذعت أخبارًا عن اعتلال صحتي، وطلبت من الوزير إعفائي من منصبى، فاضطر إلى ترك الحرية لي في اختيار الطريقة التي أقضى بها بقية أيام حياتي.

وأسرعت أبيع كل ما أملك، واستأجرت قافلة وضعت على ظهور جمالها متاعى، وأخفيت بين الكثير الذى أخذته معى، الصناديق التى حملتها من بيت الضاحية، وجئت إلى دمشق.

١٤) تنتظرك مفاجأة أخرى

وكان الشيخ صاحب الدار قد حرص على إبقاء جزء من قصته إلى النهاية، فأجاني به عندما قال:

«وقبل سفري من بغداد، عرفت أن رجلاً فاضلاً اسمه» عبد المنصف الخضراوي» قد تولى أمانة ديوان بيت المال».

خفق قلبي بشدة بين ضلوعي، فهذا هو الشيخ الجليل صاحب البيت يذكر اسمي، فبذلت جهداً خارقاً كي أسيطر على انفعالاتي حتى أستمع إلى بقية حكايته.. قال:

«عرفت أن الخضراوي راجع كل حسابات الديوان في عهد سلفه أبو الفضل الديناري»، فوجدتها دقيقة سليمة لا تشوبها شائبة.

وعندما أبلغ الخضراوي السلطان بهذه الحقيقة، قال السلطان له: «الله يرحم الديناري، لو ظل حياً لرددت له أعباءه، ولو كان له وارث لأعدت إليه أمواله، لكنه توفي بغير وارث».

ثم طلب كتمان الأمر ما دام لن تتحقق فائدة من إذاعته، فوعد الخضراوي بالكتمان..





صَحْتُ فِيهِ وَقَدْ بَلَغَتْ بِي الْإِثَارَةُ أَقْصَى حُدُودِهَا: «لَكِنْ هَا أَنْتَ تَحْكِيهِ!!.. كَيْفَ وَصَلَ إِلَيْكَ خَبْرُهُ وَقَدْ كَتَمَهُ الْخَضْرَاوِيُّ عَنِ الْجَمِيعِ؟!».

ضَحِكَ الشَّيْخُ فِي هُدُوءٍ وَهُوَ يَقُولُ: «بَلْ تَنْتَظِرُكَ مُفَاجَأَةٌ أُخْرَى: لَقَدْ سَمِعْتُهُ مِنْ زَوْجَةِ الْخَضْرَاوِيِّ نَفْسِهَا!!».

وَلَمْ يَتْرِكْ لِي وَقْتًا لِأَلْقِي مَزِيدًا مِنَ الْأَسْئَلَةِ وَقَدْ اشْتَدَّتْ لَهْفَتِي وَتَزَايَدَ انْفِعَالِي، فَقَدِ اتَّجَهَ نَحْوَ بَابِ الْقَاعَةِ وَفَتَحَهُ عَنْ آخِرِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

«حَانَ الْوَقْتُ لَتَدْخُلِي يَا سَيِّدَتِي!».

انْدَفَعْتُ نَحْوَ زَوْجَتِي أَعَانِقُهَا وَأَصِيحُ: «يَاسْمِينَ!».

وَتَعَلَّقْتُ ابْنَتِي بِثِيَابِي فَرَفَعْتُهَا أَضْمًا مَعَ وَالِدَتِهَا وَالْدَّمُوعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنِي وَأَنَا أَهْتِفُ بِكُلِّ الْحُبِّ وَاللَّهْفَةِ: «حَبِيبَتِي بِسْمَةَ!».

١٥ أنتِ كَابِنِي لِي

انتظر الشيخ حتى هدأت انفعالات اللقاء المفاجئ الذي ما كان
يمكن توقعه، وكنت أظن قبل لحظات استحالة حدوثه في تلك الساعة
وفي ذلك المكان، وأكمل حكايته: عندما جئت إلى دمشق ومعى الثروة
كلها، اشتريت هذا القصر لأستضيف فيه كل مساء خمسة في حاجة
إلى طعام.

ومنذ أسابيع قليلة وصلت إلى دمشق سيّدة مع ابنتها، كان واضحاً
أنها من أسرة كريمة ذات مكانة، لكن كارثة حلت بها جعلتها تهاجر
إلى هنا بغير سند.



ومع تَعُودِي استضافةً بعضِ الرجالِ على العشاءِ في بيتي، فإنني كثيراً ما أرسلُ النفقةَ التي تحتاجُها عائلاتٌ أو سيداتٌ، فأخبرني أهلُ الخيرِ بأمرِها. وهكذا انتظمتُ نفقتها تتسلَّمها منْ تابعي بانتظامٍ.

وزارتني ذاتَ صباحٍ لتشكرني، فوثقتُ بي كأنني والدُها.

عندئذٍ صارَ حَتْنِي أنْهَا زوجةُ الخُضراويِّ أمينِ ديوانِ بيتِ المالِ، الذي ارتكبوا ضدهُ نفسَ ما وقعَ منْ ظلمٍ على سلفِهِ الديناريِّ، وأخبرتني عنْ هُروبهِ منْ بغدادٍ لا تعرفُ إلى أينَ، لكنها تُرجحُ مَجيئَهُ إلى دمشق، وترجو أنْ يدلَّهُ أهلُ الخيرِ على قُصري كما أرشدوها هي إليه.

ومنذُ يومينِ نقلَ لي حاملُ بريدٍ قادمٍ منْ بغدادٍ أخبارَ منْ اختارهُ السلطانُ لفحصِ شُؤونِ بيتِ المالِ أثناءَ تولي الخُضراويِّ مَسئوليتَهُ، فقد انتهى منْ مراجعةِ السَّجَلاتِ والحساباتِ فوجدها كلها سليمةً، وأمرَ السلطانُ بردَّ كلِّ أموالِكَ إليك».

تضاعفَ شعوري بالراحةِ، لكنَّ زوجتي ياسمين سمعتني أقولُ في أسفٍ: «تظهرُ براءتي، لكنْ بعدَ كلِّ ما حلَّ بي!!».

سألني الشيخُ: «لعلَّكَ تُريدُ الآنَ العودَةَ إلى بغداد؟».



قلتُ في غير تردُّدٍ: «أعودُ عندما لا أجدُ من يمنعني من قولِ الحقِّ
لكي يفوزَ هوَ بالقبولِ والنَّجَاحِ!!».

ثمَّ خففتُ من لهجتي وأضفتُ: «سأرسلُ من يتسلَّمُ أموالِي، ثمَّ أعودُ
إلى بغدادَ عندما يُبعدُ السلطانُ من حاشيتهِ كلَّ الذين يعملونَ على
إساءةِ العلاقاتِ بينه وبين أخلصِ الرجالِ له».

قالَ الشيخُ: «مادمتَ تختارُ في الوقتِ الحالي البقاءَ هنا، وأنا
ليسَ لي زوجةٌ ولا ولدٌ، وكَي تواصلَ ما كنتَ تفعله من خيرٍ عندما
كنتَ أميناً لديوانِ بيتِ المالِ، ولأنك حرصتَ على إظهارِ براءةِ سلفك
«أبو الفضلِ الديناري» صاحبِ كلِّ هذه الثروة التي أعيشُ في نعيمها،
فإنني منذُ الآنَ أعتبرُك كابنِ لي، تعيشُ معي في قصرِي هذا أنتَ
وابنتي ياسمين وحفيدتي بسمة، تواصلونَ في حياتي وبعدَ رحيلي
استضافةً خمسةٍ محتاجينَ كلَّ مساءٍ على مائدةِ عشاءِكُم..».

وتمهَّلَ لحظةً ثمَّ أضافَ في تأكيدٍ: «لعلَّ الناسَ يثقونَ جميعاً أن
نهرَ الخيرِ سيظلُّ متدفقاً أبداً لا ينقطعُ!».

تمت

